

نزع حب جاسوسها

(فصل هذه القصة على مبارزة مائة صنية)
عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

الصغير ، وأذهب معه إلى
الدرسة وأداعبه قليلاً ، وكان
فيليب يعيش في البيت المقابل
لبيتنا ، وأظن أنه لو لم يجهز
الدكتور ماير بأمرائه وابنه
إلى ليتون ، وأنا في سن
الخامسة عشرة أو السادسة
عشرة ، لكنت أنا وفيليب

قد كبرنا معاً وقد تزوج أحدهما من الآخر ، ولكن
بعد أن حل أنطون في البلدة ، علمت أنه لن يكون
هناك أحد سواه من نصيبي !

وقد اعترف كل إنسان بأن أسرة « ماير » قوم
طييون ، حتى وإن كانت لهم في حياتهم طرق أجنبية
غريبة . لقد كانوا ألماناً ! وفي حين أن أنطون نفسه
قد ولد في هذه البلاد : كان أبواه لا يزالان يشكلان
لثمتها الألمانية ويذكران على الدوام وطنهما . فلم
يكن غريباً أن ينشأ الفتى وهو يمد نفسه ألسانياً
أكثر منه انجليزية !

ولقد ذهب معنا إلى المدرسة ، ولكنه لم يكـد
يلغ السن التي تسمح بإرساله إلى الخارج حتى أرسله
أبوه إلى ألمانيا ليتم ثقافته فيها . وقد قال الدكتور ماير :
« ليس في هذه البلاد مكان يستطيع الرجل
الفتى أن يحصل فيه على ما يريد من التجارب ، فلـكي
يصبح أنطون مهندساً ماهراً كما يجب أن يكون ،
لا بد من أن يذهب إلى ألمانيا لإتمام تعليمه » .

وقد امتنعت أي قليلاً عندما سمعت هذا الكلام
وقالت فيما بعد :

« يلوح لي أنهم يظنون أن هذه البلاد سالحة

[... ماذا كان في مقدورها أن تفعل بعد
أن مرت الحديقة كلها فيما يتصل بأمر هذا الرجل
ومع ذلك ازدادت له حبا ١٢ ...]

أظن أن هذه القصة يجب أن تبدأ في البلدة
الصغيرة بمقاطعة إسكس حيث عشت أنا وأنطون
قبل أن نتزوج :

لم يكن هناك ما يميز هذه البلدة — التي أسميها
ليتون — عن ألف مكان آخر مشابه لها ، إلا وجود
الثكنات العسكرية على مسافة منها تقرب من ميل
واحد . وكانت هذه الثكنات مؤلفة من صفوف
طويلة من المباني الخشبية ، أمامها ميدان فسيح
للمرض ، كان أهل البلدة يقصدون إليه في ساعات
بعد الظهر من أيام الآحاد ؛ وفيها عدا هذا وعدا الجنود
اللابسي الخاكي المتفرقين هنا وهناك لم يكن للثكنات
في حياتنا من شأن يذكر !

كنت أنا وأنطون نعيش في حي واحد من البلدة
— هو الحي القديم — حيث كان أهلي يقيمون
في البيت الكبير القديم الذي بناه جدي الأكبر
عندما اتخذ هذه البلدة مقاماً له .

كنت في أيام الأولى ألب مع فيليب استاوا

وكان صوته رقيقاً حين نطق باسمي في الليلة الأخيرة قبل سفره إلى ألمانيا، وكان واقفاً إلى جنبي في غرفة مكتب أبيه الضئيلة النور، وقد تسربنا إليها لنفسي لحظة بعيدين عن الاجتماع الذي أعده أصدقاؤه لوداعه، قال:

— إنك لآية في الجلال يا ماري إيلين، حتى لأتمنى لو لم أكن تاركاً هذه البلاد فأمسكت بشدة بحافة المكتب ورأى محاولة أن أقاوم تيار الوحشة والكآبة الذي غمرني على حين فجاءت وقلت:

— وإني كذلك لأتمنى ألا تبرح هذه البلاد. فلم يكديسمع هذه الكلمات حتى جمعت بين ساعديه، والتقي فيه الصغير بفعى على قبلة سريعة حارة غمرت وجهينا جميعاً بحمرة الخجل، وقال أنطون:

— إنك لتعلمين يا ماري إيلين أنني سأعود ثانية إلى هذه البلاد، فإذا تريد أن أحضر لك مى؟

وشمرت من وراء هذه الكلمات التي حاول فيها أن يسترد مظهر الانشراح والبهجة عاطفة انفعال بعيدة النور... وقد أجبت به بقولي:

— لا أريد أن تحضر لي إلا نفسك

ولكن هذا الذي طلبته هو الذي عرف قلبي آخر الأمر عن يقينٍ مُر أنه الشيء الوحيد الذي لم يكن في مقدوره أن يعيده إلي. نعم إنه أعاد إلي جسمه المستقيم الجامع صفات الرجولة، مصحوباً بالثقة التي ولتها في نفسه تجارب خمس سنوات في الخارج. ولكن الفتى الذي قبلته تلك الليلة في غرفة مكتب أبي لم يمد إلي قط

بالقدر الكافي لتكوين ثروتهم فقط. لقد أصبحت أشعر بالنصب من سماع الحديث عن الوطن طوال هذا الوقت. فإذا كانوا يحبون وطنهم هذا الحب فلماذا جاءوا إلى هنا؟

ولكن لم يكن أحد في الواقع يستاء من أقوال الدكتور. فقد كان كل إنسان يعرف ما انطوى عليه قلب هذا الطبيب من الشفقة، وكيف يلبي راضياً نداء الواجب الإنساني في أشد الليالي صقيماً فيذهب لإسعاف المرضى والمصابين — حتى أشدهم فقراً — وهو يعلم جد العلم أنه لن ينال بنساً واحداً جزاء عمله!

كذلك كان أنطون على مثل أخلاق أبيه فكان كريماً لأقصى حدود الكرم، على الرغم مما كان متصفاً به صبيّاً من إهمال وعدم اكتراث ومرح صبياني، وكان أنطون في تلك الأيام دائماً منشرح الصدر طروباً، وكان طويل القامة أسمر اللون فيه نوع من النشاط المصعب أشبه ما يكون بالسهم المشدود في القوس مهيئاً للانطلاق

وكنت أعرف أنني وأنطون نؤلف زوجاً جميل المنظر، فلقد كنت بيضاء بقدر ما هو أسمر، وكان شعري رمادياً يضرب إلى البياض، ولي عينا ن ذرقاوان كميون أسرة أبي ولي قامة أبي المشوقة. كذلك كان اسمي هو اسم أمي ماري إيلين، وكان كل إنسان آخر يختصر هذا الاسم فيدعون ماري دون أن يذكر القلب، ولكن أنطون كان هو وحده الذي يدعوني باسمي كاملاً، وكان صوته العذب يضفي على الاسمين ممّا نفمة موسيقية حتى ليصبح نطقه بهما أشبه بالفناء

تزوجت من أنطون بعد شهر واحد من عودته ، وكان فيليب ستاو شاهد زواجنا ، وكانت بعض رفيقاتي اللواتي نشأت معهن وصائف المروس . وكانت حفلة الزفاف جميلة . وبعد انقضاء شهر المسل

الباخرة ، وقد ألح صحابنا على أن يعمروني أنا وأنطون بأوراق الاحتفالات الملونة من أشرطة طويلة إلى قصاصات دقيقة ، وعندما حيتهم بحية الوداع من فوق ظهر السفينة كنت محملة بكمية كبيرة من هذه الأوراق



قبل أنطون وظيفة مهندس مساعد عند مقال يشغل بيناء خزان في مصر

وفي سوتبتون التقينا على غير انتظار ببعض الأصدقاء الذين ابتهجوا برؤيتنا ابتهجنا برؤيتهم ، واحتفلنا باجتماعنا احتفالاً بهيجاً قبل أن نركب

لقد كنا ننظر بقيرا كتراث لكل شيء في هذه الحياة الحرة الفنية التي توافرت لنا بعد أجيال من الحيلة والحذر الفلح . وقد أُلقيت في ذات مرة نظرة خاطفة على ضخامة ميراث بلادنا العظيمة وذلك عند ما أبدى أنطون ، على أثر استقرارنا في بيتنا

إلا أقل قدر يكفي لتوفير الراحة الضرورية ، إذ علمت أن المهندسين يندر أن يقيموا في مكان واحد مدة طويلة تسمح لهم بالاستقرار

وقد قال لي أنطون مازحاً :

— من المحتمل ألا يكون لك أبداً بيت كبير ما دمت متزوجة مني ، هذا إلا إذا كان في وسك أن تنقل ذلك البيت معنا حينما ذهبنا . وفي الحق أن المهندسين ليسوا بالأزواج الثابتين على أنني لم أكرث لتويع الحياة التي أحيهاها فإني لأظن أنني أستطيع أن أعيش في حقل ربي وأن أشعر بالسعادة التامة ما دام أنطون مني . وبعد أن مضى على زواجنا ما يقرب من العام شعرت بحادث مفرح كان لا بد لي من أن أشاطره خبره .

ولقد عدت من مكتب طبيب الشركة مساء ذلك اليوم الذي شعرت فيه بهذا الحادث ، وأنا واثقة آخر الأمر من صدق ما شعرت به ، وكنت لا أستطيع الانتظار حتى يعود أنطون من عمله لأخبره بأن ما رجواؤه قد تحقق . فوقفت السيارة أمام البيت وبدأت أسعد المر الموصول إلى الباب قبل أن ألاحظ الرجل الواقف أمام المتبة . وكان رجلاً كبير الجسم له وجه حليق لا يبين الإنسان في تقاسيمه معنى من المعاني ، فهو أشبه بوجوه ألف رجل سواء من أمثاله لولا عيناه ، فهما عينا جامدان زرقاوان باهتتا الزرقة تشبهان قطعتين من الجليد بين بقية تقاسيم وجهه العادية . ولم ألبث حين رأيت ذلك الوجه أن أبقت أني رأيت مثل هاتين العينين من قبل في مكان ما . ولقد ضابقتني

الجديد ، ملاحظة خفيفة فيها شيء من الحط بمكانة إنجلترا ولقد ثرت عند ذلك دفاعاً عن بلادي فقلت في حماسة :

« إن كون إنجلترا تختلف عن ألمانيا لا يعني أنها تقل عنها عظمة وخطراً ، إننا آخر الأمر إنجلترا ، ونحن لا نريد أن نقلد عادات غيرنا من الأمم » ولا بد أن يكون وجهي قد غمرته حمرة اليقين الذي اندفع تياره فجأة إلى نفسي ، فقد أمسك أنطون بوجهي بين كفيه المداعبتين وقال سائلاً :

— أرجو ألا نكون حقاً غاضبة مني من جراء أمر غامض كهذا ؟

لا... لم يكن لي أن أغضب منه فقد كنت أعلم حتى في ذلك الوقت أنه لم تنهياً له قط الفرصة لبشعر بمثل ما أشعر به ... وليعرف معنى أن يكون الإنسان بريطانيا . فهو منذ بدأ يفهم ما يقال أمامه كان دائماً يسمع أمه وأباه يتحدثان إليه عن البلاد الأخرى التي لا يزالان يتمالقان بها ، وكان يتكلم لغة تلك البلاد وقرأ آدابها ... فهل من المعجب حتى وإن كان أنطون قد ولد في إنجلترا ، أن يكون ولاؤه الوطني موزعاً على هذه الصورة الموثسة ؟

ولكن لم يكن لي متسع من الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور حتى لو أنني أردت ذلك ، فقد كانت حياة الزواج التي دخلتها حياة جديدة منيرة : فهذه الصحراء الواسعة الناصعة البياض تتراى أمام عيني تبدو فيها عن بعد التلال المتناثرة . ولقد أحبيت ما في هذا المنظر من غمراة . ثم جاء دور الاهتمام بتحويل الكوخ الخشن البناء إلى شبه بيت يصلح للسكنى تزينه الستائر والصور ولا يحوى من الأثاث

تبتعد ، وقد حاولت أن أقاوم شعور الخوف الشديد الذى استولى على حتى لكأنه يقبض على يدي من حديد . وكان يحىء هذا الرجل قد فتح على صورة ما باباً خلفياً لجرع لم يكن فى مقدورى أن أسوره بالألفاظ الكلامية

على أننى حين نأهيت للنوم قلت فى نفسى إننى أهتم لأمر فارغ ، ورأيت أن أوجل ما استطعت التأجيل التفكير فى هذا الأمر مؤلمة عبتاً فى أن أذكر أن رأيت هذا الرجل قبل . على أنه من الجائز أن أكون واهمة فى جميع مخاوفى فقد سمعت أن النساء اللواتى فى مثل حالى كثيراً ما يشمرن بإحساسات غريبة

وعادت ذكرى الحادث السعيد الذى أريد أن أشاطر أنطون أنباءه فاستولت على رأسى فكأنها رداء دافى . واسع لففته حول جسمى عند ما استغرقت فى النوم ، وقلت فى نفسى إنه متى عاد إلى البيت أخبرته ...

وكأننى فى الأشهر التى تلت ذلك اليوم قد استحلحت إلى جسم منسوج من خيوط من الزجاج ، فقد كان أنطون شديد العناية بأمرى ، يحذرنى من المشى الطويل ، ويرشدنى إلى ما يصح أن أفعله وما لا يصح . حتى لقد نمت من رفته النهائية وقلت له :

— يا لله يا أنطون ! إنك لتكاد تحسب أن لم تحمل امرأة قط من قبلى ؟

فكانت ابتسامته الرقيقة خير جواب لما توهمه طيشاً منى ، على أن النظرة التى بدت فى عينيه كانت جادة حين قال :

— ذلك أن أحداً لم يلد مثل ولدنا ، فهل

هذه الذكرى وأجهدت رأسى طوال المدة التى أحيته فيها على سؤاله بقولى :

— لم يمد زوجى إلى البيت بعد ، ومن المحتمل أن تجده فى مكتب القاoul عند الخزان

فشكرنى الرجل وكان صوته مثل وجهه خالياً من أى معنى ، ودخلت إلى البيت وقد كدت أنسى هذا الرجل لتفكيرى فى سعادتى الشخصية التى لا تزال سرا لم يطلع عليه أحد . ولما بدلت ملابسى استعدداً للمساء قررت فى نفسى ألا أطلع أنطون بالنبا السعيد إلا بعد الانتهاء من الطعام ، فمثل هذه الأنباء لا يجوز أن تطوى خلال ازدراد اللغات

ولكن الذى حدث بعد ذلك آخر إفضائى بالسر وقتاً أطول مما قدرت . لأننى عند ما لحقت بأنطون فى غرفة جلوسنا الصغيرة البهجة ، سمعت وقع أقدام تصعد الممر الموصل إلى باب البيت ، فوقف هذا الصوت الكلمات التى كدت أنطق بها وقال أنطون وهو ذاهب ليفتح الباب

لعله أحد موظفى المكتب
ثم فتح الباب ، وبعد أن لفظ بعبارة نصف مخنفة خطأ إلى خارج البيت

ولكننى تبينت فى لحظة قصيرة أن القادم هو الرجل نفسه الذى رأيته أمام البيت بعد ظهر ذلك اليوم . وعاد أنطون بعد لحظة ليخبرنى أنه ذاهب فى مهمة بنيب فيها بضع ساعات . ثم قال :

— يحسن يا مارى إيلين ألا تسهرى فى انتظارى ورأيت كيف استولى الجود والعبوس على وجهه الأسمر فجأة ، ثم قبلنى قبلة قصيرة وأسرع إلى خارج الدار ، وسمعت وأنا قابمة فى ركن الصفة صوت سيارة

ترين أن نقشته طبيياً مثل جده ...
فقد كنا أنا وأنطون واثقين من أن ولدنا
سيكون ذكراً، ثم مضى يقول :
— وسنرسله أيضاً إلى ألمانيا لإتمام ثقافته
كما فعلت أنا !

« إن ولدك ولد لطيف ... فترى ماذا يكون
في المستقبل ... لعله يصير رئيساً للوزارة ؟ »

والحق أنني رأيت من النظرة الأولى أن ولدي
توني الصغير كان طفلاً مدهشاً لم يولد مثله من قبل
على أن الطبيب قد ضحك لما جاء في عبارته من
مزاح ، ولكن أنطون نظر طويلاً إلى وجه ابنه
الصغير قبل أن يجيب الطبيب بقوله :

— ولم لا ؟

وكان أنطون قد وجد في اللحظات القصيرة
التي نظر فيها إلى وجه ابنه الجواب لأمر كان يزججه
منذ عهد طويل ؛ ثم رأيت على فكيه خطوطاً جديدة
تدل على الحزم حين أردف جلسته الأولى بقوله :

— إنه أول كل شيء رجل انجليزي !
وفي اليوم التالي سألتني أنطون إذا كنت أبالي
بعدم العودة إلى الخزان بعد أن أصبح قائدة على مفادرة
الستشفي . وقال :

— إن هناك عملاً جديداً سيبدأ في كينيا ،
ونستطيع أن نسافر بمجرد أن تصبحي قادرة على السفر
فسأنته في شيء من الارتياح :

— أنقصد أنك ستترك عملك ؟ ولكن لم ذلك
يا أنطون ؟ إن العمل في الخزان لم يكده ينتهي بعد
أم تراني مخطئة ؟

لقد كان أنطون يحب عمله في الخزان جداً ؛
ولكنه تهرب من الإجابة على السؤال الذي نطقت

فقلت قبل أن أدرك معنى ما أقول :

— آه . لا . إن أولادنا سيكونون بريطانيين
يا أنطون . وأنا أريد أن يذهبوا إلى المدارس الإنجليزية
وإني لأظن أن شأنك كان غير شأن أبنائنا . صحيح
أن أبويك جاءا من ألمانيا ولكن ألا ترى الفارق بين
أسرهما وبين أسرنا فيما يتصل بأبنائنا ؟

على أنني لم ألبث أن تبينت أنني كنت على حق
في كلماتي هذه .

ولقد ضحك أنطون لما أبدت من مظهر الجد
والاهتمام . وعلى حين فجأة فكرت يائسة في الفتى الذي
قبلته قبله الوداع منذ أعوام قليلة . فإذا أصابه
في السنوات التي قضاها في الخارج ففرق بيني وبينه ؛
فقد أدركت في هذه اللحظة كيف استحبال أنطون
استحالة تامة إلى إنسان آخر لم أكن لأستطيع
أن أفهمه في بعض الأحيان !

على أن هذا الموضوع مع ذلك لم يكن إلا وقتياً
فلم يلبث أنطون أن ترك لهجة الجد التي كان يحدثني
بها ، واستحال مرة أخرى إلى الرجل الذي أحبيته
وقال :

« إن أماننا منسماً في الوقت للتفكير في هذا
كله يا عزيزتي ماري إيلين ، أما الآن فيجب النظر
في خير الوسائل التي أستطيع استخدامها للعناية بك
ولد ابنتنا في الشهر التالي ، وجاء طفلاً قوياً

— أظن أنه من الخطأ أن يحاول الإنسان إنشاء ابنه مالياً لدولتين مختلفتين في وقت واحد إذ لا بد له إن عاجلاً أو آجلاً أن يختار إحداها فيختصها بولائه ... لا ... أنا لا أريد أن يواجه توني أبداً ما كان لا بد لي من مواجهته

ونجاة حبس أنطون الكلمات في فمه وضمني بين ساعديه عائداً إلى صرحه القديم وإلى ما عهدت فيه من طيبة القلب ، وقال :

— كل هذا لا علاقة له بمبلغ حبي لك وأحسبك تعرفين مقدار هذا الحب ؟

وبقيت لحظة واثقة من أن هناك شيئاً آخر يريد أن يقوله لي ، وكان هذا الشيء يرفرف بيننا صامتاً ولكنه حقيقة مزعجة ، فاعسى أن يكون ذلك الشيء ؟

من المحتمل أنه لو صاغ هذا الشيء إذ ذاك في كلمات ... ولكن لم يكن الكلام في ذلك الوقت ليغير شيئاً من الواقع ، وما من شيء كان يمكن أن يحدث غير ما حدث أساساً الأمر كله كان مغروساً عميقاً في السنوات التي مرت من قبل

وبعد أن استقررنا في منطقة العمل الجديد الذي التحق به زوجي حاولت أن أقنع نفسي بأنني كنت واهمة في كل ما تخيلت

وكانت الأرض التي يحفرون فيها النفق صخرية صلبة ، وقد أنشئت فوقها على عجل بلدة صغيرة من الأكواخ الحجرية ، وكان كل شيء يحيط بنا طبيعياً حتى لكان زوجي لم يهرب من همله الأول مطلقاً . ثم بغير إنذار ولا تحذير تحطمت سعادتنا تحطماً تاماً كأنها لم تكن قط

به عيناى ، وقال بخافة قولاً لم يكن حاضراً من قبل في رأسه :

— إنهم يضمنون هناك مشروعاً عظيماً لتوليد الكهرباء من القوة المائية ، وأنا أريد انتهاز الفرصة للتمرن على حفر الأنفاق . فيمكنك إذا شئت أن تعودى إلى إنجلترا لفترة ما فقلت في جد تهكمى :

مرحى ! إنك تريد أن تتخلص بمثل هذه الوسيلة من توني ومنى ! ولكن اعلم أنك إذا قررت الذهاب إلى القطب الجنوبي فإننا سنكون في أترك

وأى شيء كان يهمنى من الحياة في أية بقعة من بقاع الأرض ، على أن الحياة في كينيا قد يكون فيها شيء من الطرافة واللذة

لم أكد أسترد قوتي وأصبح قادرة على السفر حتى سافرنا . وقد بذل أنطون أقصى جهده ليسهل الرحلة على ويسبغ عليها روحاً من البهجة والسرور . ورأيت من خصاله القديمة ما لم أراه منذ أشهر عديدة . كذلك كان توني في أثناء الرحلة على أحسن ما يكون فقلت بخورة :

— كأتى به مسافراً طوال عمره . وما قصدت أن أكون متصلة يا أنطون في أمر المدرسة التي ترسله إليها ، ولا شك في أنه سيجب أن يذهب إلى المكان نفسه الذى ذهب إليه أبوه من قبل ففز زوجي رأسه وقال :

— لقد كنت أنا أيضاً أفكر طويلاً يا ماري إيلين منذ ولد توني ...

وتوقف لحظة كما لو أنه وجد صعوبة في صوغ ما يريد أن يقوله في اللفظ المناسب ثم قال :

ولكن ليلي إذا رويت الحادث كما وقع لم تبد
قسوته على حقيقتها

دخلت غرفة النوم في تلك الليلة وقد حملت توني
جيداً نمت ساعدي ، على الرغم من معارضته ، وكان
قد بدأ يتكلم في وضوح ، على أنه حتى بدون
أن يتكلم كان واضحاً أنه غير راغب في النوم
فقلت له ضاحكة :

« إن هذا غير جميل منك يا بني ، ولكن كل
إنسان لا بد أن يعمل أعمالاً لا يرغب في عملها
بعض الأحيان - حتى أبوك »

قامت توني في الحال عن البكاء ونظر من فوق
كتفي إلى أبيه الذي كان يتسم له وهو جالس على
كرسيه في غرفة الجلوس . ولست أدري السبب
في أنني إذا ذكرت الآن هذه الحادثة خفف ذكرها
من آلامي ببعض الشيء ، على أنها تخفف بالفعل

وعلى كل حال كنت لا أزال في الغرفة الثانية
أرقد توني في سريره المجاور لسريرنا عندما سمعت
أنطون يتحدث مع إنسان آخر في دمدمة غامضة ا
فرجوت في قلق ألا يكون عائداً إلى عمله في الليل ،
ثم خطوت إلى غرفة الجلوس فإذا بي أرى أمامي تلك
النظرة الباهتة نظرة ذلك الرجل الذي جاء ليقابل
زوجي في مصر

وعلى حين فجأة ، وبصورة لا أستطيع تفسيرها ،
تذكرت أين رأيت ذلك الرجل من قبل . فقد كان
دخولي من الغرفة المظلمة إلى الغرفة المضيئة هو
المفتاح الذي فتح باباً في ذاكرتي كان منسياً
لقد رأيته في الشكنات خارج بلدتنا - فهل

حقاً هو ذلك الرجل الذي رأيته منذ سبع سنوات؟
لقد كنا جماعة نسير إلى ميدان المرض أمام الشكنات:
كنت أنا وفيليب وزوجان آخران أو ثلاثة ، وكان
أنطون لا يزال متغيباً في ألمانيا يتم دراسته ، وكانت
خطاباته هي وحدها التي تسد الفراغ الذي تركه غيابها
في نفسي ، وكان فيليب يعلم في ذلك اليوم كما أعلم أنا
أنني لم أذهب معهم إلا لأحاول نسيان بعض ما أشعر به
من الوحدة .

وكان الرجل الواقف الآن مع زوجي في غرفة
بيتنا أحد الجنود الذين صرنا بهم في ذلك اليوم ،
ولاني لواقعة أنه هو نفسه ، ولكن لماذا يلاحق هذا
الرجل زوجي في كل مكان ؟

شعرت فجأة كأنني أسير مغمضة العين في بلاد
شديدة الخطر ، ولو أن أنطون قدم لي الرجل في هدوء
على أنه صديق يبحث عن عمل .

فلما خرج الرجل الغريب قلت :

— أنا واثقة من أن هذا الرجل كان مقيماً
بالشكنات في ليتون ، وما أستطيع أن أنسى أبداً
النظرة الغريبة التي ينظرها إلى غيره ، فهل كنت
تعرفه في إنجلترا ؟

مضت فترة صمت طويلة قبل أن يجيب زوجي
بقوله :

— لقد قابلته هناك

فسألته متغلة :

— من هو الرجل يا أنطون ؟ ولماذا يلاحقك
في كل مكان ؟

فأجاب أنطون آخر الأمر :

— هو مقاتل وقد ظن أنني أستطيع أن أجد له عملاً ...

ولكنه قطع الحديث فجأة فارتدى على أحد الكراسي وخبأ وجهه بين كفيه وقال :
— لا ... ليس هذا هو الصدق يا ماري إيلين ، فهل تثقين بكلمتي إذا قلت لك أنني سأحاول ألا أراه بعد الآن ؟

فركمت إلى جانب زوجي متوسلة وقلت :
— ما الخبر يا أنطون ؟ إنه مهما يكن من أمر فلن يكون أسوأ من جهلي به ، قل يا أنطون ، ما شأن هذا الرجل معنا ؟

فنظر زوجي إلى بعينين تجلي فيهما معنى الألم وبدا الذبول واضحا ، وقال آخر الأمر :

— لقد كنت غيبا إذ خيل إلى أنني أستطيع الحرب منه . لقد قلت يا ماري إيلين أن ليس هناك ما هو أسوأ من ألا يعلم الإنسان الحقيقة . ولكن هذا الذي سأرويه لك أسوأ بكثير مما تظنين : لقد كنت أعمل وكيلاً لإحدى التشكيلات ... وهو ... استيقن ... الرجل الذي كان هنا الليلة ، عضو آخر معنا . إنه جاسوس !

وقد نطق أنطون بهذه الكلمة الأخيرة بصوت أجش مخنق

« لا ! » ... إن ذلك لم يكن أمراً واقعاً ، فهذا ما لا يسمع عنه الإنسان إلا في الكتب . لقد أجفلت متراجمة إلى الوراء قليلاً حتى لا أمس أنطون وقلت :

— ليس ما تقول صدقاً يا أنطون ، قل لي مؤكداً إنه ليس صدقاً ... إنك رجل إنجليزي

فستحيل عليك أن تفعل ذلك ...

فضحك أنطون ضحكة المكتئب وقال :

— أنسيت أنني قلت لك من قبل إنني نشئت على ألا أحسب نفسي إنجليزيًا ؟ ألم يحدثنني عن أرض الوطن ! يا لله ! إن والدي لم يدركا معنى ما كانا بفعلان ؟

ثم قال في صوت خاشع :

— أظن أنه كان طبيعياً منهما أن يتعلقا بأصلهما القديم ، وما كانا يستطيعان أن يتصورا أنه قد يبلغ بي البله إلى أن أحسب أنني بمثل هذا العمل أؤدي عملاً عظيماً وواجباً نبيلاً لأبناء وطني . لأنني كما ترين كنت لا أزال أعد نفسي ألمانياً قبل أن أكون إنجليزيًا ، ولم يغير هذه العقيدة في نفسي إلا مولد توني

فصحت وقد ثارت نفسي :

— وهذا الرجل ... هذا الذي يسمى استيفن أكان التجسس هو السبب في التحاقه في الجيش ؟ وهل التفتت به هناك من أجل ذلك ؟

فقال زوجي في نأن :

— لقد طلب مني أن أتصل به . والحق أنني قابلت ذلك بالرضا أول الأمر ، فقلت لك إنني كنت أحسبني أخدم وطني فسأنته :

— ولكن لماذا تحتاج دولة أخرى إلى معلومات من النوع الذي تستطيع أن تعطيهم عن الخزائن والأوراق ؟

فأجاب أنطون وقد نمت نعمة صوته عن ألم اليأس الذي يحز في صدره :

— ولماذا يدسون رجالهم في مصانع الطائرات

— لم يكن لي أن أخبرك بشيء من هذا فقد أصبح كل ذلك في حكم الماضي

وعندنا تدريجاً في الأيام التي تلت تلك الليلة إلى حياتنا العادية حتى لقد بدأت أعتقد أن أنطون كان على حق فيما قاله . ولكن لم يكده ينقضي أسبوع واحد حتى عاد أنطون إلى البيت تحت انفعال خفي هو على صمته أفصح دلالة من الكلام المنطوق . على أنني لم أستطع أن أفهمه بشيء إلى أن انتهينا من المشاء الذي خيم عليه الصمت الرهيب ، وقد هم أنطون عن المائدة لا يلبس بحرف ، وعندئذ لم أطق الصبر ولم أستطع حبس الكلمات التي كاد يخنقني حبسها . فقلت :

— إن هناك يا أنطون خبراً سيئاً تخفيه عني ، وما أشك في ذلك أبداً !

فنظر إلى نظرة مستقيمة وقال :

— أما هذه المرة فليس هناك من أمر خاطئ يا ماري إيلين ، غير أنه ليس أمامي متسع من الوقت للتفصيل !

فقلت هامة :

— أهو استيفن ؟

وهل أنت ملاقيه مرة أخرى ؟

فهز أنطون رأسه في تردد واشتمأز وقال :

— هل تتقين بي يا ماري إيلين مرة أخرى واحدة ؟ وإني أعدك أنه لن يكون هناك بعد هذه المرة ما يدعو إلى الخوف

ثم تركني وذهب ، وأعقبت خروجه فترة صمت خيل إلى أنها أجيال لا عداد لها ، وقد وقفت أفكر في الأحلام الباطلة التي حلت بها عن الحياة الطبيعية

ومسائل القولاذ ، لماذا يدخلونهم في الجيش كما دخل استيفن ؟ ذلك لأن كل شيء يملونه عن المرافق الحيوية لأية دولة أخرى قد يكون ذا فائدة كبيرة إذا نشبت الحرب

ولما تراجعت إلى ظلال الضوء المحيطة بي أمسك بيدي وقال :

أتصدقيني يا ماري إيلين إذا قلت لك إنني لم أعط هذا الجاسوس أي شيء له قيمة ما ؟ وإنني لم أعطه أية معلومات على الإطلاق منذ ولادة توني ؟ وتوقفت أنطون عن الحديث برهة ثم مضى يقول في خمس :

— لقد أدركت عند ما ألفت النظرة الأولى على ابني أنه خير لي أن أموت من أن أخونه . وأظن أنني قد ولدت من جديد عندما أدركت هذه الحقيقة فيجب أن تصدق هذا الذي أقول

فقلت وقد ارتعشت قليلاً على الرغم من حرارة الغرفة :

— إني أصدقك ، ولكنني فقط أخاف ذلك الرجل استيفن !

فقال أنطون في تأن :

— لقد قلت له الليلة ما قلت لك ، ولا أظن أنه سيضايقني بعد الآن .

فقلت :

— إننا نستطيع أن نرحل من هنا ، ويمكنك أن تحصل على عمل آخر

فهز أنطون رأسه وقد بدا البؤس على فيه :

— إنني لن أمهرب مرة أخرى !

وجذب رأسي إلى صدره ، وكنت أبكي لما لاحظت من اشتداد نحوه في الأشهر الأخيرة .

وقد قال :

كان هذا المزم هو الذى دفعنى إلى آلة التليفون
فقد يكون فى الوقت متسع لأن يجدوا أنطون ويحولوا
بينه وبين ما هو مقدم عليه .

سأنا لم غداً من فطاعة ما أنا مقدمة الساعة على عمله ؛
وسيكون فى سنوات الكآبة العديدة المقبلة ما يكفى
لأن أدرك ما يجب على أن أعمله . أما الآن فكل
ما يجب عمله هو أن أسرع العمل إن كان لابد من
أن أقتد أنطون من الهوة التى حفرتها له معاول
الولاء الخاطى ، الذى تظاهر به أبواه للبلاد التى
تركها وراءهما .

على أنه لم يكن هناك ، مع ذلك ، ما يدعو
إلى الاستمالة بالتليفون ، بذلك نبأنى صوت سيارة
وقفت أمام الباب

وأظن أننى قد فتحت الباب وإن كنت لا أذكر
كيف فتحت ، وكل ما أذكره أننى قرأت على وجه
رجل البوليس الجسيم الواقف أمامى ما جاء ليخبرنى به
فصحت : أنطون

ولعل الكلمة قد خرجت وحدها من بين
سحب الشكوك التى كانت تكتنفنى وتظلم كل شىء
فى وجهى .

فقال رجل البوليس :

— لقد قتل ياسيدنى ، ولا بد أن يكون الرجل
الآخر — الذى يتسمى باسم استيفن — قد فطن إلى
أن هناك شركاً منصوباً له ، فأطلق النار على زوجك
قبل أن نستطيع القبض عايه

وسمعت نفسى أردد قول رجل البوليس :
« شرك ! ولكن زوجى ؟ »

فقال لى الرجل فى لهجة الجد :

— لا أحسب من مصلحتك كثرة الكلام
الآن يا مسز ماير ، ولكن يكفى أن تعلمى أن زوجك

السميدة ، فكرت فى هذه الأحلام فوجدتها تتلاشى
فى محيط من اليأس عميق . لقد وعدنى أنطون بأن
هذه ستكون آخر مرة بلقى فيها استيفن ، ولكن
هل يستطيع الرجل الذى أزلقت قدمه إلى هذا
الشرك الممعد أن يخلص نهائياً مما يكتنفه من الأشواك
والمعد ؟

خيل إلى وأنا واقفة فى مكانى عاجزة عن عمل
أى شىء ، إننى سأجن ، فقد كنت على علم بأن زوجى
ربما كان فى هذه اللحظة يضع بين يدى هذه المصيبة
من الجواسيس معلومات قد تؤدى إن قريباً أو بعيداً
إلى إهلاكنا جميعاً ، وأية قيمة لأن تكون هذه
هى آخر مرة يسام فيها فى مثل هذه الأعمال الشائنة
الفظيعة ؟ إن علمى بما فعله سيقف دائماً حائلاً بيننا
وبين السعادة التى كنا ننشدها ، فكان جرة ملهبة
قد توغلت فى أعماق ذكرياتنا فهى تحرق كل ما يصادفها
وليس فى المقدور اتقاء نارها

وتونى ؟ سينمو ويكبر فى محيط من الخوف
والشكوك . لقد تصورت أن بكاء نفسى إن هو
إلا من أجل تونى وحده . ولم يكن فى مقدور
الدموع أن تصل إلى موضع الألم الذى يثيره فى
صدرى التفكير فيما قد يكون أنطون مقدماً عليه
لإهلاكنا نحن وجميع الأمهات والأطفال الذين
يشتركون فى الميراث الذى يحاول مثل استيفن
وشركائه أن يعلبوه

الاستقلال ! الحرية ! لم يصبحا فى نظرى مجرد
كلمات تقال . لقد أصبحا أمراً حيويًا لى ولولدى
كالهواء وحرارة الشمس . ورأيتنى على حين فجأة
أسام مع جميع الرجال والنساء الذين ذهبوا من قبلى
فى عزم شديد للدفاع عن ميراثنا المجيد مهما كلفهم
ذلك الدفاع من تضحيات

التي ترد بها الصحف في كل يوم ، وبخاصة أن رجال
البوليس قد أغفلوا الإشارة في تقاريرهم إلى العلاقة
الدولية المتصلة بالرجل الذي كان يسمى نفسه استيفن ؛
فهناك آخرون يجب الإحاطة بهم ومراقبتهم ويجب
ألا يخطر لهم على بال ما نزل بأحد وكلائهم
ولكنني أعرف كل شيء وسيعرفه توني يوماً ما
إن إنشاء توني فتى جديراً بالانتساب إلى أبيه
وإلى جميع هؤلاء الرجال الذين ضحوا كل ما يحبون
في الحياة في سبيل الاحتفاظ بحرية بلادهم ، هي المهمة
التي لو استطعت أداءها لوفيت لزوجي أحسن الوفاء
ولجزيته مما أسأت به إليه في ومني .

عبد الحميد محمد

قدمات في سبيل وطنه ، كما لو كان قد قتل في ميدان
الحرب ، ولا بد من أنه كان عارفاً بمقدار الخطر الذي
يتمرض له بتسليمه بعض الفناذج التي أعدتها بنفسى
لنستطيع أن نقبض على ذلك الرجل متلبساً بالجرعة
لقد كان أنطون عالماً بما يجب عليه أن يفعل
حين قال لي : « تقى بي ... وإني أعدك ... بأنه
لن يكون هناك بعد الآن ما يدعو إلى الخوف »
ولكنني لم أدرك قصده وشككت فيه ...
شككت في أنطون الذي برهن على حقه في أعظم
ميراث يستطيع الإنسان أن يطالب به ... ذلك أن
يكون بريطانيا ...
قد تكون قصة موته واحدة من آلاف الأخبار

المجموعة الاولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرباب لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومتنقلة .

النمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالوثمنه الاتية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة والسادسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد